# دراسة تقييمية لعينة من الرسائل العلمية ومشاريع البحث المنجزة في مقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر

د.محمد بوالروايح
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة -

**تمهيد:**

من البديهيات التي لا تقبل الجدل ، أن الوجود الفرنسي في الجزائر لم يكن حدثا عابرا أو عملا معزولا وحدودا يقف عند حدود المغامرة السياسية والعسكرية ، بل عملا مدروسا – بكل المقاييس –حيث سعى أساطينه ومن تولوا كبره إلى إحداث فصام نكد بين الجزائر وتراثها في بعديه الوطني الإسلامي والثقافي الحضاري ، وقد تعمدت عدم الفصل بين البعد الوطني والبعد الإسلامي لأن النزعة الوطنية والنزعة الإسلامية في تاريخ الجزائر قد انصهرتا في بوتقة واحدة ، وبالمثل تعمدت عدم الفصل بين البعد الثقافي والبعد الحضاري ، لأن الثقافة ليست إلا نتاجا حضاريا بغض النظر عن طبيعة هذه الثقافة وهذا النتاج الحضاري.

وهذا الحديث الذي مهدت به للموضوع ليس حول الأبعاد الوطنية الإسلامية والأبعاد الثقافية الحضارية للتراث الجزائري ، وإنما حول عملية الطمس المنظمة التي مارستها فرنسا ضد هذا التراث بكل زخمه التاريخي وغناه الحضاري وامتداده الزماني والمكاني ، وذلك على مدى قرن أو نيف من الزمان، وقد اتخذت عملية الطمس أشكالا كثيرة لعل من أهمها على الإطلاق

سياسة التجنيس والتجهيل التي رامت فرنسا من خلالهما القضاء على عاطفة الانتماء الوطني الإسلامي والانتماء الثقافي الحضاري ، وقد حرصت كل الحرص على أن يمتد هذا العمل البربري غير الديني وغير الحضاري وغير الإنساني ليستغرق كل الأجيال عن بكرة أبيها ، ونظرا لفظاعة هذا العمل المنظم فقد كان محو آثاره وإزالة رجسه يقتضي عملا مضاعفا وجهدا موصولا وهو ما سعت الدولة الجزائرية الفتية إلى تداركه بعد انتهاء الحقبة الاستعمارية التي لم تكن خفيفة الظل ولا خفيفة الوطء على الجزائر التي جعلت من أولوياتها في مرحلة الاستقلال بناء العقل الجزائري في خضم بناء الإنسان والعمران ، وذلك لعلة ظاهرة وهي أن بناء الإنسان لا معنى له إذا بقي العقل جامدا لا يتأثر بالفعل الحضاري ولا يؤثر فيه ، ولأجل تحقيق هذه الغاية ، شرعت الجزائر في فجر الاستقلال في بناء الجامعات والمعاهد العليا ، وقد استطاعت بعد فترة وجيزة أن تحقق ما يمكن تسميته نهضة علمية طفقت تأتي على التراكمات التاريخية الكبيرة التي خلفها الاستعمار الفرنسي ، وقد سلكت هذه النهضة العلمية مسالك شتى دينية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وغيرها.

وكانت جامعة الأمير عبد القادر للعلوم حلقة مهمة في هذا التحول العلمي والحضاري في الجزائر ، فقد احتضنت في رحابها منذ افتتاحها سنة 1984 ثلة من الدارسين وصفوة من الباحثين تنوعت اختصاصاتهم العلمية ، ولكنها في المحصلة الجامعة استغرقت علوم الشرع وعلوم الوضع لتنتظم في ضمن ثنائيات ذهبية على نحو الشريعة والقانون والعقيدة والأديان والدعوة والإعلام .

وقد كانت للرسائل العلمية والمشاريع البحثية في مقارنة الأديان ، ولا زالت إسهاماتها الواضحة في مجال البحث الديني الأكاديمي الذي لا يقدم المعلومة الدينية بالأسلوب التقليدي الخرافي المعهود ولكن بالأسلوب العلمي الحضاري الذي ينبو عن التأويلات العامية التي تفسد حقيقة الدين ، وهذا

الأسلوب العلمي الحضاري لا يتنكر لخصوصية الدين وقدسيته ، بل يجعلها غاية أولى ومقصدا أسنى .

وليس بوسعي أن أحيط بكل الرسائل العلمية والمشاريع البحثية المنجزة في مقارنة الأديان لكثرتها نسبيا ، ولكن حسبي أن أقتصر في ذلك على عينات أقرأنني لم أراع في اختيارها اعتبارات التمايز أو التحيز أو المفاضلة أو التمييز إذ الأمر لا يخرج عن ذكر ما استطعت الوصول إليه وقدرت على جمع مادته ودراسة مضامينه.

**منهجي في دراسة العينات العلمية والبحثية:**

إن دراستي لمختلف للعينة المختارة من الرسائل العلمية ومشاريع البحث المنجزة في مقارنة الأديان ليست دراسة نقدية محضة تتعقب الايجابيات والسلبيات ، أو بمعنى آخر ليست هذه الدراسة نوعا من التحكيم العلمي بأي وجه من الوجوه ، لأنها تتجاوز المنهج النقدي المحض إلى المنهج التقييمي الذي يشيد بالإسهامات العلمية التي تنطوي عليها الرسائل والبحوث مناط الدراسة في عمومها ، وتزيد عليها بذكر بعض الإضافات واستشراف بعض الآفاق من أجل تطوير البحث الديني المقارن وإخراجه من نمطه التقليدي أو الفكري النظري البحت الذي لا يكون له بيقين أثر في المحيط الاجتماعي والثقافي .

وقد قسمت البحوث والمشاريع إلى قسمين اثنين :

**القسم الأول** : ويتعلق برسائل الماجستير والدكتوراه ، واقتصرت على عينة أم عينتين من كل صنف كما أسلفت ، ودرست كل صنف على حده ، وقد حرصت في ذلك على تحديد المقاصد المنهجية الآتية :

1- دراسة الإشكالية.

2- دراسة المنهج أو المناهج المستخدمة في الدراسة.

3-بيان الإسهامات العلمية.

**القسم الثاني** : ويتعلق بمشاريع البحث المنجزة في مقارنة الأديان، وقد اكتفيت في ذلك بعينة واحدة ، لأنها كانت الوحيدة المتاحة ، ولأن جل البحوث في مقارنة الأديان هي في طور الإنجاز ، ولذلك فهي غير معنية بهذه الدراسة التي تسلط الضوء على ما تم إنجازه إنجازا عملا وفعليا.

وبعد هذا العرض العام للرسائل العلمية ومشاريع البحث قيد الدراسة، أشفعت ذلك بذكر بعض الإضافات العلمية التي تشتمل عليها، وأردت أن تكون هذه الإضافات العلمية مشتملة على جانب فكري نظري ، وجانب عملي ، بمعنى أن تساير هذه البحوث التطور الطبيعي للمحيط الاجتماعي والثقافي ، وهو ما يتفق مع أهداف الملتقى العلمي ، الذي وفق واضعوه ومنظموه في الجمع بين المكونات الأساسية للبحث في العلوم الإسلامية التي تراعي الخصوصية الإسلامية والخصوصية الاجتماعية والثقافية وذلك في توافق وتناسق تام بين مبدأ الأصالة والمعاصرة.

ولعلة منهجية ملزمة لا بد أن أقدم بين يدي دراستي للرسائل العلمية ومشاريع البحث المنجزة في مقارنة الأديان توطئة علمية مختصرة تناولت فيها علم مقارنة الأديان ومجالاته المختلفة، وفي هذا السياق ووصلا بمنهج البحث في العلوم الإسلامية ، لا بد من التأكيد على حقيقة تاريخية ، وهي أسبقية المسلمين في تأسيس علم مقارنة الأديان على نحو ما يقرره محمد عزت الطهطاوي:( ... مما تجدر الإشارة إليه أن هذا العلم يعتبر ثغرا من ثغور الإسلام التي يجب على المسلمين عامة وأولي الأمر منهم خاصة – سواء في الدين والدنيا – النهوض به وجعله مادة أساسية في معاهدهم وجامعاتهم ، فما اعتنق الإسلام واحد ممن يعتد به إلا بعد أن سلك هذا الطريق ودرس ذلك العلم ).[1]

ولكن الأسبقية الإسلامية في تأسيس علم مقارنة الأديان تصطدم بواقع ليس له دافع وهو أن هذا العلم ليس علما مرغوبا فيه في أكثر الأقطار العربية والإسلامية ، لما غلب على ظن كثير من الشخصيات الدينية بأنه بدعة في الدين

أو تبرير للإلحاد أو كفران للسمت الذي يمتاز به الإسلام على غيره من الأديان، ولما غلب أيضا على ظن كثير من الشخصيات السياسية من أن علم مقارنة الأديان باب إلى الفتنة أو الردة الدينية التي من شأنها أن تهدد الوحدة والهوية الوطنية.[2]

والحقيقة أن هذه الظنون كلها ادعاءات فارغة لا يسندها دليل إلا مجرد الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا .

ولعلم مقارنة الأديان مجالات كثيرة ، من أهمها :

1- المجال العقائدي: ويقصد به مقارنة العقائد الدينية وما تنطوي عليه من توحيد أو تثليث أو إلحاد أو نحوه ، وفي هذا المضمار تتجلى علوية العقيدة الإسلامية لعدم مجافاتها للطبع أة منافاتها للفطرة ، وهذه حقيقة أقرها بعض علماء اللاهوت فضلا عن علماء الإسلام ، ومن المفيد في هذا المعنى أن أسوق ما ذكره جان سميث عن إقرار رجل مسيحي بتميز العقيدة الإسلامية حيث يقول مل ترجمته :( لم أبحث في البداية عن دين جديد ، وفي أثناء خمس وعشرين سنة التي قضيتها في الكتابة كنت خلالها ألتمس شيئا يخفف من وطأة الشك في نفسي ، وطفقت بعدها أبحث عن صيغ جديدة يمكن أن أراها وألمسها ، لم أكن أستطيع صياغة سقف مطالب محددة ولكن كانت تراودني فكرة مشروعة وملحة عما سأكون بعد ذلك ، حيث لا أرى قساوسة ولا فصاما بين الطبيعة والأشياء المقدسة ولا تكون هناك حرب مع البدن إذا استطعت أن أفهم غرائزه ومتطلباته ، ويكون الجنس مطلبا طبيعيا وليس لعنة على النوع الإنساني .أخيرا رغبت في عنصر شعائري ديني لأشحذ الحواس ولأضبط عقلي ، وفوق كل هذا تقت إلى الوضوح و الحرية ، لم أرد أن يتحمل العقل وزر العقيدة ، والحقيقة أنني كلما قرأت عن الإسلام كلما بدا لي صدق ما كنت أتصوره عما سأكون بعد ذلك وهو ما صرت إليه)[3]

2- المجال الإنساني: وهنا ينبغي التأكيد على الطابع الإنساني للدين قبل أن يشوه حقيقته بعض رجال الدين والمتدينين . كما كان شأن بعض الشرائع السماوية قبل التحريف وفي مقدمتها الشريعة الموسوية والشريعة العيسوية ، وبالمختصر المفيد فإن الأديان في أصلها وحقيقتها لا توصف بعنف أو تطرف وإنما العنف والتطرف صناعة يحترفها بعض الأتباع والرعاع الذين لا يفقهون حقيقة الدين ، وهذه الحقيقة واضحة وخاصة في حالة المسيحية الحقيقية واليهودية الحقيقية والإسلام .

**الدراسة التقييمية لعينة من رسائل الماجستير في مقارنة الأديان:**

**العينة الأولى**: رسالة ماجستير للباحثة كريمة بن جاب الله[4]

وتتحد إشكالية هذه الرسالة ومناهجها في الكشف عن الطرائق المنهجية التي اعتمدها ابن تيمية في الرد على النصارى ، والتي تتنوع بين الطرائق العقلية والنقلية ، وهو ما أبانت عنه الباحثة بقولها :( خصصنا هذا الفصل لدراسة منهج ابن تيمية في رده على عقيدة النصارى في التثليث . وقد بينا فيه أهم الأغراض الجدلية التي نالت حظا أوفر من المداخلات الكلامية لارتكاز دين النصارى على أصل التثليث . وقد حرصنا فيه كل الحرص على انتقاء النصوص وعرضها عرضا موضوعيا ، ثم تحليلها بهدف الكشف عن مضامينها المنهجية ، ويقوم منهج ابن تيمية في دراسته لهذا الغرض أساسا على إبطال دعاوى النصارى في التثليث ، معتمدا على جملة من الأدلة العقلية والنقلية الكتابية ثم القرآنية).[5]

أما عن الإسهامات العلمية للباحثة فتتجلى في أكثر من موضع ، وخاصة في القدرة على تأصيل بعض المسائل الاستدلالية بجملة من المصادر العلمية مع مراعاة الإطار البحثي والمنهجي العام وعدم الخروج عنه للخوض في قضايا هامشية وحشوية ، وقد تنوع وتكرر الإبداع العلمي للباحثة في مواضع كثيرة من الرسالة.

**العينة الثانية**: رسالة ماجستير للباحثة فضيلة بوذراع[6]

وقد حددت الباحثة إشكالية رسالتها والمنهج المستخدم في الدراسة بسوقها جملة من الأسئلة ، كانت تحاول من خلالها رسم ملامح الموضوع من خلال حشد ظاهر للأفكار ، وقد آثرت الباحثة لتأصيل هذه الإشكالية إتباع جملة من المناهج كما قالت :( استخدمت في موضوع البحث المنهج الوصفي في الدراسة الجغرافية الإقليمية ن كما وظفت المنهج الاستقرائي والتحليلي في الدراسة البشرية لأرض فلسطين ، وفي بيان أهمية الأرض من الناحية الدينية ولدراسة الأسس التي تقوم عليها قداسة الأرض في الأديان السماوية الثلاث وفي بيان أثر هذه القدسية على الصراع القائم مع شيء من المنهج النقدي ، وإن كنت لم اعتمده بكل عناصره وإنما استخدمته في نقد الأحقية أو الرابطة التاريخية والدينية –الأرض الموعودة- التي يعتمدها اليهود كأساس لعودتهم إلى أرض فلسطين .[7]

والحقيقة أنني إذا أردت تقييم هذه الرسالة باختصار أن أقول إن الباحثة تمتلك ملكة نقدية عالية ، ومنهجا فكريا متناسقا ، وهو ما يتجلى في الإضافات العلمية التي وشحت بها رسالتها ، حيث لم تكتف بالحديث عن الأرض المقدسة حديثا تاريخيا وإنما ربطت القضية بالمستجدات الراهنة وهذه إضافة علمية يجب تثمينها والإقرار بأهميتها.

**الدراسة التقييمية لعينة من رسائل الدكتوراه:**

وقد اقتصرت في ذلك على عينة واحدة ، وهي أطروحة دكتوراه للباحث العربي بن الشيخ ، والتي يتناول فيها الباحث قضية الخلق في القرآن الكريم مع مقارنتها بالنظريات العلمية الحديثة ، وقد حاول بحث المسألة بطريقة مقارنة ، ولكنه واجه مشكلة حقيقية تتمثل في صعوبة التوفيق بين النص القرآني الإخباري ، والنص العلمي الاختباري ، ولهذا السبب لم يوفق إلى حد كبير في

تحقيق الأهداف الأساسية للبحث والتي أعلنها في المقدمة ، رغم امتلاكه لأفكار جيدة ورصيد علمي معتبر في الموضوع المبحوث.

**عينة من مشاريع البحث المنجزة:**

وقد أشرت سابقا إلى أن أنني رجعت في ذلك إلى بحث واحد تم إنجازه ، وهو من البحوث التي تتناول مسألة العلاقات الإسلامية المسيحية عبر التاريخ ، ويتخصص البحث في العلاقة المعاصرة بين الإسلام والمسيحية ، وقد حاول الباحثان مسعود حايفي ومحمد بوالروايح كثيرا من المحفزات والمعوقات التي تقفز لأول وهلة في استحضار موضوع السلام بين الإسلام والمسيحية ، ولعل الإضافة العلمية في هذا الموضوع تتجلى في ربط مسألة السلام بين الإسلام والمسيحية بتداعيات العولمة وما تفرضه من أنماط وأفكار .

واللافت للنظر أن الباحثين نسيا حل الإشكال الحاصل حول طبيعة الدين وطبيعة العولمة ، وخاصة إذا علمنا أن كثيرا من الباحثين والمحققين يقولون إن مجالات العولمة بعيدة كل البعد عن مجالات الدين ، فحيث تعرف العولمة بأنها فلسفة سوقية يعرف الدين بأنه هداية ربانية ، واختلاف المجال والاختصاص يفرض إشكالا حقيقيا من الصعب حسمه وتجاوزه .

**الملاحظات العامة على الرسائل العلمية ومشاريع البحث:**

إن العرض المتيسر للعينة من الرسائل من الرسائل العلمية و نموذج البحث المنجز في مقارنة الأديان ، يسمح بتسجيل الملاحظات والتوصيات الآتية:

1-إن جل الرسائل العلمية ومنها التي اتخذتها عينة للدراسة تجمع على إبراز إسهامات المسلمين في مجال مقارنة الأديان ، وهو ما يحتم علينا اليوم تثمين هذه الإسهامات وإثرائها وتطويرها ، فالحقيقة أن الدراسات الدينية المقارنة قد خطت خطوات كبيرة في الشرق والغرب ن وقد نجد أنفسنا في الشرق أكثر احتياجا لهذه الدراسات ، لأنها تمثل الأسلوب الأمثل لمواجهة

المفتريات الكثيرة التي يثيرها الغرب ويبثها خاصة في نفوس بعض المسلمين بتشكيكهم في دينهم وإثارة الشبهات العقدية والفكرية التي تجد قبولا لدى كثير من العامة وحتى بعض الخاصة ، لسبب ظاهر وهو أن هؤلاء ليس لهم من الحصانة الدينية والفكرية ما يمكنهم من مقارعة الحجة بالحجة وبيان الحق من الباطل ، وهي المهمة التي أرى أنه لا يمكن أن تضطلع بها إلا نخبة فكرية استوعبت عقائد الإسلام وأحكامه ، وزادت على ذلك فاستوعبت العقائد الأخرى ليس حبا في أهلها ولا ميلا إليها ، ولكن أملا في أن تستطيع أن تميزها من الحق الذي جاء به الإسلام والذي لا يخامرنا شك ولا يخالجنا ريب في أنه الحق الذي لا يقبل التحويل ولا التبديل.

إننا في قسم مقارنة الأديان ، حين ولجنا مجال المقارنة بين الأديان ، كان يحدونا فيذلك أمل وألم في آن واحد ، أمل في خدمة الإسلام ، وألم مما آل إليه وضع العقل المسلم الذي يرى المؤسسات الغربية الاستشراقية وحتى العربية التغريبية تنال من الإسلام وتستميل أهله بأسلوب فكري مبتذل ، وتستخف شريحة كبيرة منهم فلا يحرك ذلك في أصحاب الهالات الفكرية المزعومة شيئا بل يكتفي أغلبهم بتبرير ذلك بقولهم نحن على الحق وهم على الباطل وهذا من التدافع وهو سنة الله في خلقه ، ونحن لا نشك في هذا الناموس الإلهي ولكننا لا نعتقد أن هذا يقعدنا عن المواجهة والمغالبة الفكرية.

إن ما يجري في المحيط الاجتماعي والثقافي الوطني والإقليمي والدولي يدفعنا حتما إلى زيادة الاهتمام بمقارنة الأديان ، وتعرية الذين حكموا على هذا العلم وأهله بالبطلان والانسياق وراء الباطل ، وهؤلاء في اعتقادي وفي اعتقاد كل ذي حجر لا يعرفون من أمر دينهم شيئا ، ولو عرفوا لأحجموا عن مثل هذه السفاهات التي تصم الآذان وتنبو عن معهود الناس وتجافي منهج الإسلام.

إن العلماء الأوائل أمثال ابن حزم وابن تيمية والشهرستاني وهؤلاء نزر من غمر كما يقال ، لم تخرجهم دراسة الأديان عن جادة الإسلام ولم تفسد

فطرتهم ولم تضعف عقيدتهم ، بل انتهوا من دراستهم للأديان مسلمين كما بدأوا لم يغرنهم تثليث ولا تجسيد عن عقيدة التوحيد .

2-إن أغلب الرسائل العلمية في مقارنة الأديان – وليس بالضرورة التي كانت محلا للدراسة والتقييم – قد اقتصر أصحابها على الموضوعات الكلاسيكية القديمة ، وناءوا عن الموضوعات المعاصرة ن كما فعل الباحث محمد بوالروايح وغيره كثير ، ولذلك فإن هذا الملتقى الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة والواقعية في مجال البحث في العلوم الإسلامية و ذلك فإن هذا الملتقى الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة والواقعية في مجال البحث في العلوم الإسلامية يحتم علينا نحن الباحثين أكثر من غيرنا ويحملنا تبعة تطوير علم مقارنة الأديان بما يخدم القضايا الوطنية والعربية والإسلامية ، ولا يتحقق هذا في نظري إلا باقتناع الباحثين بضرورة الاهتمام بالمسائل المستجدة في مقارنة الأديان وإ عطاء الأولوية في ذلك للموضوعات التي يكون لها طابع عملي وتسهم في حل كثير من المعضلات الدينية والفكرية وغيرها، وبذلك وحده يمكن تجاوز رتابة الموضوعات الافتراضية التي تنطلق من فكرة مجردة ليس لها ارتباط بالواقع المعيش ولا بقضايا الألفية الثالثة.

3- ضرورة أن يكون لمسألة تبصير العامة ببعض مسائل الحوار الديني نصيب في البحوث المنجزة ، بحيث يجب أن توفر هذه البحوث إجابات لبعض عمليات الاستلاب الديني والفكري والتي يأتي في مقدمتها التنصير، ومن المهم أن أشير هنا إلى أن المنصرين في الجزائر والشمال الإفريقي وجهوا اهتمامهم إلى العامة ، لأنهم – أي العامة- يفتقرون إلى القدر اللازم من الحصانة الدينية ،و يقتدي المنصرون في ذلك بالدليل المتكون من سبع وثلاثين نصيحة للعاملين في ميدان التنصير في الجزائر والشمال الإفريقي والذي أعدته كنيسة كليفلاند ( مار مرقس ) بولاية أوهايو.

## الهوامش:

1 -محمد عزت الطهطاوي ، الميزان في مقارنة الأديان : حقائق ووثائق ، دار القلم ، دمشق ط 2 ، 2002 ، ص2 .

2 -المصدر نفسه ، ص 10.

3-Jane I Smith. Islam In America :Columbia University press : New York 1999 pp x 'Introduction)

[4]كريمة بن جاب الله ، منهج ابن تيمية في الرد على النصارى ، إشراف الدكتور بشير بوجنانة ، كلية أصول الدين ، جامعة الأمير عبد القادر ، 2001

[5]كريمة بن جاب الله ، المصدر السابق ، ص ح من المقدمة

[6]فضيلة بودراع، الأرض المقدسة والصراع الفلسطيني الإسرائيلي ، إشراف الأستاذ الدكتور عبد القادر بخوش ، كلية أصول الدين ، 2005 .

[7]فضيلة بوذراع ، المرجع السابق ، ص د من المقدمة.